نص "يأس" لهيفاء حمودة ما بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه الدراسة نص "يأس" للكاتبة السورية هيفاء حمودة، وسأسلط عليه الضوء في حد ذاته، ثم سأتناوله من زاوية كونه ومضة قصصية أم قصة قصيرة جدا، وها هو النص:

نفسي التي ظننت أنها صالحتني، أخطأت، زجرتها، نهرتني، فشلنا عند أول اختبار.

نص يجسد التعبير الصادق عن اضطرابات وتناقضات النفس البشرية، فيعتقد الإنسان أن بمقدوره أن يسير على خط يرسمه بنفسه دون أن يحيد عنه، لكن الواقع يقول بأن "خطط" الإنسان تتغير وتتحور على الدوام نتيجة لصراعات القوى الداخلية المشكلة لشخصيته، وتتمثل هنا في الصراع

بين النفس والعقل أو الإرادة الواعية للإنسان. هناك أغنية للمطربة المصرية حنان ماضي دائما ما أستشهد بها في حياتي الخاصة تقول فيها: "كلما نوصل لمينا/ نبتدي ونقول رِسينا/ الشطوط ترفض لقانا/ والبحور تاني تنادينا". وأرى في الومضة هنا تناصا مع هذه الأغنية حتى لو كانت الكاتبة لا تعرف هذه الأغنية، فالراوية هنا تعتقد أنها "رسيت" على بر "التصالح" بينها وبين نفسها، وتظن أن نتيجة هذا التصالح تتمثل في الانسجام أو التوافق بينها وبين نفسها. لكن هذا التصالح لا يدوم، أو بالأحرى هو "ظن" لا يصل إلى مرحلة اليقين أو التحقق.

ونلاحظ هنا أن الراوية تستعمل فعلين متساويين في القوة، وهما: زجرتها ونهرتني. وتساوي هذين الفعلين في القوة مع تبادل الفاعل والمفعول موقعيهما في الفعلين يدل على التكافؤ في القوة أو السلطة بين الراوية ونفسها. وهذا التوازن في القوى يدل على أن لكل منهما ذاتيتها ولكل منهما إرادتها، ولا يمكن للتصالح أن يستمر.

ويأتي الفشل في نهاية النص ليدل على سمة أساسية من سمات الإنسان، ألا وهي ضعفه الذي خلقه الله به، وهو ضعف يرتبط بحرية الاختيار بعيدا عن التسيير الذي يرتبط بالملائكة، ولهذا الضعف فضَّل الله الإنسانَ على الملائكة. وكون الراوية قادرة على الزجر وقادرة على إدراك الفشل يدل على أنها واعية بأخطائها وبنقاط ضعفها وستحاول أن تتعايش معها بأقل الخسائر، دون أن تقسو على نفسها لتصل إلى مرحلة التجريد والمثالية المجوّفة أو الخاوية، دون أن تصل لمرحلة السقوط.

بالنسبة لبنية النص، ومضة الاسم الموصول، كما أطلقت على هذا النوع من قبل، هي ومضة تركز على ما يرد في الجملة الأساسية وليست جملة الصلة، وبالتالي تتمثل اللحظة التي تركز عليها الومضة هنا في التأكيد على الفشل في الاختبار. والراوية تستعمل ضمير المتكلم الجمع بوصفه فاعلا للفعل: ناء الفاعلين، الأمر الذي يجعلها صادقة مع إنسانيتها ومع إدراك التناقضات المحببة ومظاهر الضعف

البشري التي يجمعها الإنسان في جوانبه مهما كانت صرامته الظاهرية.

وهنا نجد أن كل ما يرد في أعطاف جملة الصلة يمثل رجوعا للوراء على مستوى الزمن انطلاقا من اللحظة الحالية – لحظة الفشل – وبالتالي تلتزم الومضة بالمدى الزمني اللحظي الذي تتسم به أي ومضة قصصية، فالومضة تعني الفلاش، والفلاش في الكاميرا لا يستغرق إلا ثانية أو ثوان معدودة على الأكثر.

وبالنسبة للشخصيات، هناك شخصيتان فقط، الأمر الذي يتناسب مع طبيعة الومضة التي لا تحتمل في الغالب وجود عدة شخصيات، وهو أمر تحتمله القصة القصيرة جدا والقصة القصيرة أحيانا وتحتمله الرواية دائما.

وبالنسبة لزمن السرد، تستعمل الراوية الزمن الماضي الذي يدل على انتهاء الحدث قبل البدء في عملية السرد بفترة زمنية قد تطول وقد تقصر. واستعمال الزمن الماضي هنا يفتح هذه الومضة على المستقبل الذي كان سيكون: أي على

الفترة ما بين انتهاء الحدث وبين سرده في الوقت الحاضر، وكأن الراوية تقوم لنا من خلال توظيف هذا الزمن أن الفشل تكرر مرات ومرات بعد ذلك.

وبالنسبة لأسلوب السرد والمنظور، الراوية هنا مشاركة في الحدث وتنقل لنا الحدث من خلال ضمير المتكلم المفرد والجمع ومن خلال ضمير الغائب. فضمير المتكلم المفرد حاضر بغزارة هنا في "نفسي"، "ظننتُ"، "صالحتني"، زجرتُها"، "نهرتني". وبمعادلة حسابية بسيطة، نجد أن هذه الراوية تجيء فاعلا في فعلين ومفعولا به في فعلين، وكلمة "نفسي" تجمع ما بين الذات والموضوع، أي ما بين الراوية ونفسها التي تتحول إلى آخر في سياق الومضة، ويبدو أن هذا الجمع هو الذي يحدد مسار الومضة ومصير العلاقة بينهما، فلابد أن يتعايشا معا بكل ما فيهما من ضعف وقوة. ويؤكد ذلك التكافؤ بين ورود الراوية فاعلا ومفعولا به في الومضة.

والمنظور السردي هنا منظور داخلي في الأساس أو الإطار العام، فمشاركة الراوية في الحدث يجعل المنظور الإجمالي داخليا لأنها تنقل لنا كل شيء بعيونها ومن وجهة نظرها. وداخل هذا المنظور، يوجد منظور داخلي كما في "ظننتُ" و"فشلنا" ومنظور خارجي ينقل لنا ما يمكن لأي ملاحظ افتراضي موجود في مكان الحدث الافتراضي بدوره أن يراه، كما في "أخطأتْ" و"زجرتُها" و"نهرتني".

والنص بشكله الحالي فيه زيادة لغوية أو إسراف لغوي لا يتناسب مع طبيعة الومضة القصصية التي تقتضي استخدام أقل عدد كاف من الكلمات، وتقتضي ألا نورد ألفاظا يمكن الإيحاء بها من خلال ألفاظ موجودة بالفعل. وبنية الاسم الموصول تقتضي ألا يتم تقديم الكثير في الجملة الأساسية: فجملة الصلة – ظننتُ أنها [نفسي] صالحتْني" – تنقل لنا من خلال الفلاشباك أو الاسترجاع الذي لا يتم تقديمه في صدر الومضة أو واجهة المشهد علاقة تصالح سابقة بين الراوية ونفسها. والجملة الأساسية تقيم تباينا مع هذا التصالح، ويمكن

تحقيق هذا التباين بدون استعمال كل هذه الألفاظ. فعبارة "فشلنا عند أول اختبار" على سبيل المثال مفهومة ضمنيا من قيام النفس بزجر الراوية، ولذلك من الأفضل حذفها. كما أن الفعل "أخطأت" مفهوم ضمنيا من فعل الزجر أيضا، ولذلك من الأفضل الاستغناء عنه: نفسي التي ظننتُ أنها صالحتني نهرَتْني عندما زجرتُها.

obeikandl.com